انسداد الأفق ..

عن الخباب بن الأرت رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهو متوسِّدٌ بُردةً له في ظلِّ الكعبةِ ، فقلنا : ألا تستنصرُ لنا ، ألا تدعو لنا ؟ فقال : (قد كان مَن قبلكم ، يؤخذ الرجلُ فيحفرُ له في الأرضِ ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشارِ فيوضع على رأسِه فيجعلُ نصفين ، ويمشط بأمشاطِ الحديدِ ما دون لحمه وعظمه ، فما يصدُّه ذلك عن دينه ، واللهِ لَيُتمَّنَّ هذا الأمرَ، حتى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرمَوت ، لا يخاف إلا اللهَ ، والذئبَ على غنمِه ، ولكنكم تستعجِلون). صحيح البخاري.

لقد عانى الصحابة رضوان الله عليهم – كما الحال في قائدهم الأعلى عليه الصلاة والسلام – في مستهل الدعوة الإسلامية كثيرا بسبب تبنيهم لمبادئ الدين الحنيف ، و أوذوا في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وأعراضهم ، وعذبوا بشتى صنوف العذاب حتى زلزلوا وبلغ منهم البلاء مبلغا عظيما .

هنا وفي مثل هذه المواقف بالغة الصعوبة ، وقد نفد صبرهم ، واضطربت أرواحهم ، وجزعت نفوسهم ، وتبعثرت آمالهم و أحلامهم ، يلجؤون إلى منبع إلهامهم ورواء ظمئهم وشفاء صدورهم الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، طالبين النصر و الدعاء بالفرج القريب والتعجيل بإزالة الكرب .

والصحابة وإن كانوا راسخين في الإيمان ثابتين في المعتقد والمواقف ، لكن طبيعتهم البشرية تنزع وتميل بهم نحو التعجيل بالنصر ورفع المعاناة ، واختصار الطريق إلى الهدف والغاية المنشودة ، بمعجزة إلهية أو خرق لقانون الأسباب والسنن البشرية ، وهذا ما يصيب أصحاب الدعوات وحملة الفكر في مراحل انسداد الأفق واستحالة التغيير .

لكن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وهو الحكيم البارع الحصيف الفطن ، يعالج الأمر معالجة هادئة بعيدا على العواطف الملتهبة والمشاعر الجياشة ، فيوجه حملة الرسالة وذوي الألباب توجيها منهجيا متوازنا سلميا واضحا ، خلاصته :

–إحالتهم لتاريخ الأمم والشعوب وأصحاب الدعوات السابقين لهم ، الذين عانوا في سبيل إتمام الدعوة ونشرها ، وضحوا تضحيات عظيمة سُطرت لهم وخلدها التاريخ البشري . و كأن النبي الكريم يوحي لهم بطرف خفي ، بأن ما أنتم عليه ليس ببدع من الأمر ، و لستم الأوحدين فيه ولا الأسبقين إليه ولا يقاس بتضحيات الأولين ، فالبذل والتضحية سنة معروفة معهودة في الأمم ، ولم لن يتم الأمر بدونها

قال الله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) . البقرة 214. وقال (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) يوسف : 110 .

" وما من شدة تصيب الأمم إلا وهي دون الشدة التي يستعجل بها رسل الله تعالى نصر الله استبطاء له ، وهم أعلم الناس بالله تعالى وأشدهم اتكالا عليه وتسليما له . ولعمري إن المسلمين لم يصلوا في تلك الشدة التي حملت عليها الآية إلى تلك النهاية التي قال فيها أولئك الرسل ما قالوا ، ولقد قتل بعض النبيين ضروبا من القتل حتى ورد أن منهم من نشر بالمنشار حيا ، وناهيك بأصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين فيه بالنار ". تفسير المنار . محمد رشيد رضا . 2 / 301

-التبشير بالنصر والعزة والتمكين – (والله ليتمن هذا الأمر) – ، بل وأقسم على ذلك تأكيدا لوعد الله ، فهذه سنته في خلقه ، فلا يضيع عمل وأجر من صبر واحتسب واستمر في البذل ولم يبخل أو يجبن ، وفي هذا رفع للمعنويات وشرح للصدور ، و إزالة لحجب اليأس وظلمات القنوط .

وقد كانت هذه عادة النبي الكريم مع صحابته الكرام ، ففي أصعب المواقف وأشدها حلكة وظلمة ، كان ينقلهم من واقعهم المرير إلى سعة فضاء المستقبل المشرق ، كما في غزوة الخندق – من أشد الوقعات على المسلمين – لما استعصت الصخرة فضربها النبي – ﷺ- فاندق ثلثها، وخرج منها شرارة ، فكبر النبي – ﷺ- وكبر أهل الخندق، ثم دقها ثانية فاندق ثلثها، ثم ثالثة وأخبرهم النبي – ﷺ – أنه في كل دقة رأى مرة قصور الشام، ومرة قصور فارس، ومرة قصور اليمن ، والقوم في واقع مرير حرج و صعب .

-عدم استعجال النصر والتمكين – (ولكنكم تستعجِلون) – ، واستبطاء العون الإلهي والمدد من السماء ، وإحالتهم للصبر والمصابرة قدر المستطاع ، فنفاد الصبر واستعجال النصر آفة الفئة المسلمة والمجتمعات المؤمنة عبر التاريخ ، وقد ذكرت الكثير من النصوص أن النصر لا يأتي إلا بعد وصول إلى مرحلة اليأس من الأسباب المادية والقوانين الطبيعية ، واستسلام كامل لله ولأمره .

" إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة ، ويرفعها على على ذواتها ، ويطهرها في بوتقة الألم ، فيصفو عنصرها ويضيء ، ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية ، فتتلألأحتى في أعين أعدائها وخصومها . وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجا كما وقع ، وكما يقع في كل قضية حق ، يلقى أصحابها ما يلقون في أول الطريق ، حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم ، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين " . في ظلال القرآن . 1 / 219